DINIKA
Academic Journal of Islamic Studies
Volume 3, Number 2, May - August 2018
ISSN: 2503-4219 (p); 2503-4227 (e)
DOI: 10.22515/dinika.v3i2.114

The Role of Sufism in Spreading Islam and Fighting Atonement

Essa Abdullah Ali
Qatar University, Qatar
email: lali11@qu.edu.qa

Abstract
This paper delivered the need for Islamic thought to confront the Takfiri thought, through the return of Sufi thought. Sufism does not have fatwas to kill others, Sufism talks about tolerance, the love of the Prophet, and the non-compulsion of others to join either Islam or the way the murid belongs to.Sufism represents the spiritual and faithful state of Islam, the core of Islam.
This paperfind out the role of Sufism in the spread of Islam; in the past, and the contemporary in the fight against atonement.
The aim of this paperis to describe the culture of Sufism, this paperstudies the intellectual of Sufism, Sufim cultural, and politics as well. This paper studied about three main axis of Sufism; the culture and history of Sufism, the role of Sufism in spreading Islam, and the role of Sufism in addressing the Takfiri thought. Based on this study, the Islamic institution and government should adopt and adapt the Sufi thought, and to address the Takfiri culture, to prevent Muslim from joining the Takfiri groups.

Keywords:
Sufism, Islam, *Takfiri*

مقدمة

يعيش العالم الإسلامي حالة ضعف مستمرة، وهو ضعف فكريديني، قبل أن يكون سياسياعسكريا، فالحالة الفكرية أدت للضعف السياسي، وهذا هو الخطر، حيث يتعرض الإسلام والمسلمون لمخاطر عالمية وإقليمية، كما انتشر التكفير الديني، فتعرضت المنطقة الإسلامية لهجمات تكفيرية، نسبت نفسها للإسلام، فحدثت حالة فزع من الإسلام في العالم كله، أو ما يُسمّى الإسلاموفوبيا. الإسلاموفوبيا هو لفظ أومصطلح يتكون من كلمتين: إسلام وفوبيا. الفوبيا في السيكولوجيا هي خوف مرضى يسيطر على وجدان الإنسان الذي يعاني منه، والخوف من الإسلام مرض أصاب غير المسلمين بسبب موجات التكفير، المنتسبة ظلما للإسلام(الحمداني،2011)، وتوجد كتب كثيرة وبلغات مختلفة حول نفس الموضوع، وصارت صورة المسلم، أنه إرهابي على طول الخط.

وتساءل كثيرون عن السبب في نمو التكفير وانتشاره، ووجود جماعات داعش وبوكو حرام والقاعدة، وغيرها من الجماعات التكفيرية، ولماذا ينضم الشباب المسلم لها، وهي تساؤلات مشروعة يجب البحث عنها، لحماية الأمة من الأخطار التي تحيط بها.

صارت الحاجة إلى فكر إسلامي يتصدى للفكر التكفيري، الذي يدعي أنه يمثل الإسلام، رغم بعده البعيد عن روح الإسلام، كما جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن ربه من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، وروح الإسلام تقتضي نشر التسامح، ورفض العنف والإرهاب، وعدم إكراه غير المسلم فضلا عن المسلم على الدخول في الدين بالعنف.

وعند البحث عن الروح الإسلامية الحقيقية، نجد مدارس متعددة، فقهية وفكرية، روحية وإيمانية، جميعها ترفض القتل والقهر والنيل من كرامة الإنسان، والمذاهب الفقهية الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، تمثل خير دليل على روح الإسلام، ومعها يوجد الفكر الصوفي، وهو ما يتفق والمذاهب الأربعة، والفكر الصوفي يمثل الروح للفقه، يمثل الوجدان والضمير، ومن خلال الفكر الصوفي يمكن التصدي للخطر التكفيري، لأن التصوف لا يملك فتاوى قتل الغير، ولا يتحدث إلا

عن التسامح، وحب النبي، وعدم إكراه الغير على الانضمام سواء للإسلام أو للطريقة التي ينتمي لها المريد، التصوف الإسلامي يمثل الحالة الروحية والإيمانية الوجدانية للإسلام، أو هو لبّ الإسلام، ومن ثمّ نكتب هذا البحث للحديث عن دور التصوف من نشر الإسلام قديما، ودوره المعاصر في محاربة التكفير حديثا.

فقد نجحت الفتوحات الإسلامية قديما في نشر الإسلام من المحيط الأطلسي غربا وحتى ما وراء النهر شرقا، ولكن الأغلبية الإسلامية الحالية تدين بالفضل لإسلامها للتصوف، حيث انتشر بفضلها في غرب الصحراء الأفريقية وجنوبها وتحت حزام الصحراء وفي السودان، وفي إندونيسيا وماليزيا وبنجلاديش والصين والفلبين، وغيرها من بلاد المسلمين، وصلها الإسلام مع أهل الطرق الصوفية، ومع التجّار المسلمين، وهم أيضا من أهل التصوف، وتعيش هذه الشعوب الإسلامية على الميراث القرآني المستمد من الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الوجدان الصوفي، ولكن حدث خلال العقود السابقة انتشار الفكر المتطرف المتشدد، ويُعتبر هذا الفكر المتطرف، الذي ينسب نفسه للسلف الصالح، هو الوعاء الذي يستمد منه المتطرفون أفكارهم وفتاويهم، وهنا كان لابد من العودة للفكر الإسلامي الصحيح، الذي مثّله النبي وصحابته، فنحتاج للفكر الصوفي في التصدي للخطر التكفيري الذي انتشر في العالم بأسره، وأخاف غير المسلمين من الإسلام.

يكمن هدف البحث في نشر ثقافة التصوف، والعودة من خلاله للجذور الإسلامية القرآنية، وكذلك جمع روابط الأمة، لأن التصوف هو الحالة الوسط لكل المسلمين، يدين بحب أهل بيت النبي، وفي نفس الوقت يحب صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون عامل تجميع بين أبناء الأمة بأسرها، مع التأكيد على أن التصوف ضد التكفير على طول الخط، فلا يؤثر عن أي شيخ طريقه أو مريد أن أفتى بفتوى تكفير، وهذا البحث فكريثقافي، ولكنه يتماس مع السياسة، التي نحاول أن نبتعد عنها، لأن بحثنا فكري، فيبتعد عن السياسة إلا بقدر ما هو متعلق بالفكر، هذا هو هدف البحث.

يدور البحث حول ثلاثة محاور رئيسية، وخاتمة تتفرع منها محاور تفصيلية.المحور الأول: ثقافة التصوف وتاريخه. المحور الثاني: دور التصوف في نشر الإسلام. المحور الثالث: دور التصوف في التصدي للفكر التكفيري.

ثقافة التصوف وتاريخه

التصوف الإسلامي هو الروح الدافعة للإيمان، ونشر التسامح والأريحية، فالتصوف قيم أخلاقية إيمانية، يمتلك ثقافة اللاعنف، ونكتب عن ثقافة التصوف، وتاريخه وأشهر علمائه، وذلك بإيجاز لا يخل بروح البحث.ولكن ما هو التصوف، لغة واصطلاحا، علماء وعلماء، وهو ما نكتب فيه وعنه.إن كلمة التصوف تُشتق من فعل صوّف، أي جعله صوفيا، وتصوّف صار صوفيا، أي تخلق بأخلاق الصوفية، والصوفية فئة من المتعبدين، واحدهم الصوفي (لويس معلوف، 2000: 441)، وقال ابن خلدون في المقدمة: قال القشيري ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب، ومن قال اشتقاقه من الصفا أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف... قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف (ابن خلدون، 2009: 467-468).

وتحيل الدلالات الاشتقاقية لكلمة التصوف على صوفيا، والصوفة، وأهل الصفة، والصوف، والصفاء أو الصفو، كلمة صوفيا الدالة على الحكمة مستبعدة في هذا النطاق المعجمي، لأن كلمة صوفيا التي تحيل على العقل والمنطق تتناقض مع العرفان الروحاني والذوق الوجداني، كما أن التصوف بعيد عن كل اشتغال حسي وعقلي وذهني وأميل إلى الحدس العرفاني والتجربة الباطنية (ابن خلدون 2009، 487).

وهناك من يربط التصوف بصوفة كابن الجوزي، قال:"إذ كان هناك قوم من الجاهلية انقطعوا إلى العبادة والطواف حول الكعبة، ويعود نسبهم إلى الغوث بن مر الذي كان يعرف باسم صوفة

أطلقته أمه عليه، لأنها لم يكن يعيش لها أولاد، فنذرت لئن رزقت بولد لتجعلن برأسه صوفة وتهبه للكعبة فولدت الغوث، وعرف باسم صوفة وظلت الصفة عالقة بأولاده من بعده"(ابن خلدون، 2009: 498). وهذا الرأي فيه تكلف وتمحل وتصنع، ولا يمكن الأخذ به دليلا على اشتقاق التصوف من الصوفة.

وهناك من ربط التسمية بزهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وورع أصحابه رضوان الله عليهم، إذ كان النبي يلبس الصوف كما ورد في قول أنس فيما رواه ابن ماجة أن الرسول: "أكل خشنا ولبس خشنا، لبس الصوف واحتذى المخصوف"(محمد بن يزيد بن ماجه، 1986، 1: 175).

بيد أن هذا ليس دليلا قاطعا على ارتباط التصوف بحياة النبي وتقشفه في الحياة وزهد صحابته، لأن الرسول كان يلبس الصوف وغير الصوف، وكان يدعو كذلك إلى الإقبال على الحياة والتزين بكل ما يحقق الجمال للإنسان ويريحه نفسانيا وعضويا، ويوفر له السعادة الدنيوية والأخروية، ويحث الناس كذلك على التمتع بالدنيا والتلذذ بمباهجها والتنعم بنعمها، ولكن بدون إسراف ولا تبذير ولا خيلاء، وهذا الحكم ينطبق على حياة صحابته العدول على حد سواء.

وقيل: إن كلمة التصوف تشير إلى أهل الصفة من الفقراء الزهاد المهاجرين الذين كانوا يسكنون صفة المسجد في المدينة، وكانوا يقلون تارة ويكثرون تارة أخرى، فمن استغنى منهم ترك المسجد وذهب لحال سبيله ليكد في الحياة، ومن لم يجد التزم بالصفة حتى تتحسن أحواله المادية(فراحتية، 2017، 115).والذين يربطون التصوف بأهل الصفة فإنهم يقرنون التصوف بالمهاجرين لا الأنصار، فهذا رأي غير صحيح لا منطقيا ولا واقعيا ولا لغويا، لأن المنسوب إلى الصفة في علم الصرف "صفيّ" وليس "صوفيّ."

وهناك من يقرن التصوف بلبس الصوف الذي كان علامة أيقونية بصرية تحيل على الممارسة العرفانية والتزهد في الحياة والتقشف في الدنيا والاعتكاف على العبادة والصلاة والدعاء(فيروز فراحتية، 2017، 115).وكثير من الصحابة والتابعين كانوا يلبسون الصوف، فالحسن البصري يقول:"أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف"، والبدريون هم الذين شاركوا مع الرسول في معركة

بدر، ولكن ليس الصوف دائما يدل على التقوى والصلاح في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كان الكثير من الناس يلبسون الصوف ليقال لهم بأنهم أتقياء ورعون، ولكنهم في الجوهر لا علاقة لهم بذلك، ويورد ابن عبد ربه صاحب "العقد الفريد" بيتين قالهما الشاعر محمود الوراق في هؤلاء المتصوفة(الأندلسي، 1997، 6: 201)

تصوف كي يقال له أمين

وما يعني التصوف والأمانة

ولم يرد الإله به ولكن

أراد به الطريق إلى الخيانة

وهناك من قال بأن التصوف يرتبط أشد الارتباط بالصفاء والصفو، فالمتصوفة ليس لهم من شغل سوى تصفية قلوبهم من أدران الجسد وشهوات الحياة قصد تحقيق الصفو الروحاني، ولكن كلمة الصفاء أو الصفو تنسب إلى "صفويّ" وليس إلى "صوفي"، وعلى أي حال، ربما اشتقت كلمة "التصوف" من الصوف وهي أقرب دلالة اشتقاقية يقبلها العقل والمنطق.

يقول أحمد أمين في كتابه "ظهر الإسلام":" وقد اختلف الناس في نسبة الكلمة هل هي من الصفة، أو من الصفاء، أو من صوفيا وهي باليونانية بمعنى الحكمة، أو من الصوف، ونحن نرجح أنها نسبة إلى الصوف، لأنهم في أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشانا وزهاده، كما نرجح أنها كانت ترتكن في أول أمرها على أساس إسلامي(أحمد أمين، 1969، 2: 150).

والدليل على ارتباط التصوف بالصوف قصة محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم الباهلي عامل خراسان، فقد دخل محمد على قتيبة وعليه مدرعة صوف خشنة، وربما بالية فقال له قتيبة: "ما يدعوك على لباس هذه؟ فسكت لم يحر جوابا، فقال له قتيبة فيما يشبه الغضب: أكلمك فلا تجيبني؟ فأجاب محمد في خشوع وهدوء: أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي، أو أقول فقرا فأشكو ربي(ابن عبد ربه الأندلسي، 1997، 6: 225- 226).

وهذا يبين لنا مدة ارتباط التصوف بالصوف، وهذا هو نفس رأي ابن خلدون الذي قال: "قلت والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب على لبس الصوف. (ابن خلدون، 2009، 467).هذا هو رأي بعض العلماء والفقهاء والمفكرين في نسبة أهل التصوف.ولكن الصوفيين أنفسهم يرون شيئا آخر، ولابد من الأخذ بها، أو على الأقل الانتباه إليها.قول عبد الوهاب الشعراني " إن علم التصوف عبارة عن علم أنقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب و السنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسنة عنها نظير ما أنقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها ، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة، إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس "(عبد الوهاب الشعرانى، ب.ت.: 41).

ونري بوضوح ما في تعريف الشعراني للتصوف من إشارات نثرية تحمل دلالات رمزية مثل آداب وأسرار وحقائق، وهو ما أكده أبو حامد الغزالي بقوله عن الصوفية بأنهم(أبو حامد الغزالى، 1984، 45) " أرباب أحوال لا أصحاب أقوال " فالأحوال التي يقصدها الغزالي هي درجات الترقي الروحاني عن الصوفية، أو ما يسمونها بمقامات الأولياء، وما يختص به كل مقام من أول تمام الابتداء وحتى مقام التجلي مرورا بمقامات المكاشفات والمشاهدات، ويعبر الصوفية عن حالاتهم بالحب، والحب لديهم لا يتعلق بالأجساد وصور المادة، بل هو حب للمعاني العقلية الكاملة وتعلق بالمثل وهيام بمصدر الكمال والجمال، فالحب لديهم طريق إلى الزهد في متع الدنيا جميعا وحرب على النفس وسبيل إلى العزوف عن مغرياتها ، وأن العبادة ليس من أجل الجنة أو النار ، ولكن للتقرب إلى الله جل وعلا ، كما عبر الشبلي عن التصوف شعرا بقوله(الكلاباذى، 1933، 58)

علم التصوف علم لا نفاذ له   علم سني سماوي ربوبى

وهو تعريف لا يخلو مما يشير إليه المتصوفة من علوم الباطن وأسرار المعاني، سواء في الكلمات أو في الإشارات، ومعظم الصوفية يرفضون نسبة أصل تسميتهم إلى غير ما قاله الشعراني في طبقاته،

مثل ما يقولون بأن التصوف يرجع إلى لبس خرقة من الصوف أو من الصفاء، وان كانوا يقولون بأن أول من لبس خرقه الصوف هو الأمام علي بن أبي طالب.

ولكنهم يستدركون بأن التصوف كعلم ينفردون به، هو علم الإشارة الذي يضم الخواطر وعلوم المكاشفات، لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد(بدوي، 2008، 132).هذا هو التصوف في أبسط معانيه، ونأخذ بتعريفهم لأنفسهم، لأنهم أدرى بفكرهم، مع العلم، بأنه يمكن القول إن التصوف من الصفاء أو الصوف أو الصفة، كلها علامات تشير إلى نقاء القلوب وتطهيرها، ومحاربة النفس والزهد.

والتصوف اصطلاحا رحلة روحانية تعتمد على التحلية والخلوة والتجلي الرباني أو اللقاء العرفاني المتوج بالوصال والكشف الإلهي، ويعني هذا أن المريد السالك كي يحقق مراده، ألا وهو الوصول إلى الحضرة الربانية، عليه أن يتجرد من أوساخ الدنيا ويتوب إلى الله وأن يتطهر من كل أدران الجسد ويبتعد عن ملذات الدنيا ويترك جانبا شهوات الحياة ومتعها الزائفة الواهمة.وبعد ذلك يختلي بالله مدة طويلة، وبعد الاختلاء والمجاهدات الرياضية الوجدانية ينكشف له الوجه الرباني، ويعني هذا أن المريد لكي يصبح قطبا أو شيخا أو يصل إلى المعشوق الرباني، لابد أن يسافر في معراجه النوراني عبر مجموعة من المقامات المتدرجة والأحوال الموهوبة لكي يتحقق له الوصال والتجلي الرباني.

ويلاحظ أيضا أن التصوف ليس فرقة مستقلة كما يقول أحمد أمين، بل هو عبارة عن نزعة من النزعات الوجدانية ورغبة روحانية من مجموعة من الميولات الإنسانية تجاه حدث أو فعل أو شيء ما. ومن ثم، يمكن الحديث عن معتزلي صوفي وأشعري صوفي وفقيه صوفي، وشيعيصوفي ومسيحي صوفي(أحمد أمين، 1969، 2:149).

ومن هنا يعرف ابن خلدون التصوف بقوله هو: "العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة(ابن خلدون، 2009، 467).

فالتصوف إذن عرفان وجداني وشوق ذوقي ومجاهدة ربانية، تقوم على الزهد في الحياة وترك الدنيا الواهمة، ويعرف البغدادي التصوف بقوله: "التصوف مبني على خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل، وترك الغرض والاختيار"، وقال الكرخي: "التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"، وقال الجنيد: "أن تكون مع الله بلا علاقة"، وقال ذو النون المصري: "أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء"، وقيل للحصري: "من الصوفي عندك...؟ فقال: الذي لا تقله الأرض ولا تظلله السماء(أحمد أمين، 1969، 152-153).

وتنحصر مواضيع التصوف حسب ابن خلدون في أربعة أغراض أساسية:

1. المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما ويترقى منه إلى غيره
2. الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل: الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورها عن موجودها وتكونها.
3. التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات.
4. ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول(مقدمة ابن خلدون، 2009، 474).

ويعني هذا أن التصوف ينبني على أربعة مقومات جوهرية، وهي: المجاهدات، والتجليات الغيبية، والكرامات، والشطحات، وقد دافع ابن خلدون عن أصحاب المجاهدات والتجليات الغيبية والكرامات الخاصة بالمتصوفة والأولياء الصالحين وميزها عن المعجزات الخاصة بالأنبياء، كما اعتبر صاحب الشطحات معذورا، لأنه يكون في حالة سكر وانتشاء ذوقي لا يعي ما يقوله أو ما يردده من أقوال أو ألفاظ أو مرويات(ابن خلدون، 2009، 474-475).

ويمكن القول بأن التصوف عبارة عن رحلة روحانية أو سفر معراجي له بداية ونهاية ووسط، فالبداية هي التطهير والهروب من الدنيا الزائفة، والوسط هي الخلوة والرياضة الروحية والمجاهدة الصوفية.

مراحل التصوف الإسلامي

ظهر الزهد مع بداية الدعوة الإسلامية في القرن الهجري الأول، وكان هذا السلوك يقوم على دعامتين أساسيتين، وهما: الزهد في الدنيا والابتعاد عن ملذات الحياة الزائفة الواهمة، والإقبال على الآخرة الباقية الخالدة، والدعامة الثانية تتمثل في حب الله بدون واسطة بشرية.

وهناك العديد من نصوص القرآن والحديث النبوي التي كانت تحث على الزهد والتقشف في الحياة والاستعداد للموت وترك الدنيا، لأنها دار غرور وزينة وخداع وخيلاء. يقول تعالى: "ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر"(التكاثر، 102 : 1) ويقول أيضا: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"(الكهف، 18 :46) ويقول أيضا: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض."(الكهف، 18 :45).

ومن الآيات الدالة على الحب الإلهي ما قاله تعالى:"والذين آمنوا أشد حبا لله"(البقرة، 2 :165) وفي الحديث النبوي الشريف: "نعم العبد صهيب! لو لم يخف الله لم يعصه"(الزركشي،1406هـ ، 169)ومن أهم الزهاد في القرن الأول الهجري الخلفاء الراشدون الأربعة رضوان الله عليهم الذين كانوا يقتدون بحياة الرسول، فضلا عن الصحابة والتابعين، وتبع التابعين، فقد كان هناك زهّاد من الصحابة أكثر من غيرهم، مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري وغيرهم، ولكن الجميع متساوون في الصحبة والإيثار والأريحية، رضي الله عن الجميع.

لم يظهر التصوف في العالم الإسلامي إلا في القرن الثاني الهجري وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية وانتشار الرخاء والغنى والجاه في البيئة الإسلامية التي كثر فيه التمدن العمراني والحضاري، وشيدت فيها القصور والبساتين، وانتشر اللهو والمجون وكثر الطرب وازدهر شعر الخلاعة، فاختلط

الناس بالحياة وأقبلوا على متع الدنيا وزينتها الزائفة، فظهر كثير من العلماء والأتقياء الذين يخافون الله ويطمعون في رحمته وغفرانه وتوبته النصوحة، فتركوا الدنيا وانعزلوا عن الناس والسلاطين، وابتعدوا عن إغراءات الدنيا ومباهجها الفاتنة فاختاروا الخلوة الربانية وتمثلوا طريق الشرع الرباني وساروا على نهج الهدي النبوي وجعلوه مسلكا لهم في التعبد والمحاسبة والعبادة والاعتكاف.

ومن أهم كتاب التجربة الصوفية وجامع نصوصها في هذه المرحلة نستحضر القشيري في رسالته وفريد العطار في "تذكرة الأولياء" والطوسي في كتابه "اللمع"... ويبقى الحارث المحاسبي هو العميد الأول للتصوف، حسب الدكتور محمد عابد الجابري، لكونه لم ينحرف في عملية التأويل ولم يغال فيها كما فعل المتصوفة، زد على ذلك أنه وقف صامدا في وجه التشيع الباطني.

ومن أهم المتصوفة الذين يذكرهم التاريخ نلفي: المحاسبي والقشيري والحسن البصري والغزالي والسراج والجنيد وابن المبارك وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي ورابعة العدوية التي تقول في الحب الإلهي(الاصفهاني ،9،1988-348)

أحبك حبين: حب الهوىوحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوىفشغل بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك ليولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وإذا كان الحسن البصري معروفا بنزعة الخوف حتى قال معاصروه:" إنه كان دائما كأنه عائد من جنازة،(أحمد أمين، 1969، 150). فإن رابعة العدوية معروفة بنزعة الحب، وقالت شعرا كثيرا في الحب الرباني منه هذان البيتان(ابن خلكان، 2،1936: 286 – 287).

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وقد روى القشيري في رسالته أن رابعة العدوية قالت في مناجاتها:" إلهي تحرق بالنار قلبا يحبك؟"، فهتف بها هاتف يقول: "ما كنا نفعل هذا، فلا تظني بنا ظن السوء(أحمد أمين،154،1969).

ومن أهم المتصوفة الآخرين الذين استحضروا الشرع الرباني في تجاربهم العرفانية نذكر: إبراهيم بن الأدهم وداود الطائي والفضيل بن عياض وشقيق البلخي وكلهم توفوا في القرن الثاني الهجري، ومعروف الكرخي المتوفى سنة 200هـ، وابن سليمان الداراني المتوفى سنة 215 هـ، وسري السقطي (253هـ) صاحب فكرة الحقائق الإلهية والتوحيد، والجنيد المتوفى سنة 297هـ الذي يعد أول من صاغ المعاني الصوفية وكتب في شرحها، والغزالي في القرن الخامس الهجري الذي حاول التوفيق بين الشرع والتصوف، وقام بعقد الصلة بين الخطاب الفقهي الذي كان يحارب المتصوفة والخطاب العرفاني الذي كان يؤمن بالباطن. وقد تجلى هذا التوفيق واضحا في كتابيه: "المنقذ من الضلال"، وكتابه: "إحياء في علوم الدين"

ومن أهم قواعد التصوف التي يرتكن إليها احترام مبادئ القرآن والسنة والإجماع، وتطبيق شعائر الدين والسعي في الدنيا بحثا عن الرزق وتمجيد العمل والشغل، لأنه زاد الدنيا والآخرة، علاوة على احترام خصوصيات الشرع في تأويل الظاهر والباطن وعدم إظهار ذلك لعامة الناس.

كما يبتعد هذا النوع من التصوف عن الشطحات الصوفية والكرامات الخارقة التي تخالف الشرع الرباني. ويعلي المتصوفة من قيمة الأنبياء بالمقارنة مع الأولياء والشيوخ والأقطاب.

وفي الأخير، يمنح التصوف مبادئه وتعاليمه ومجاهداته الذوقية من المصادر الداخلية للفكر الإسلامي أي من القرآن والسنة.

وبعد أن كان التصوف سلوكا فرديا انتقل ليكون مسلكا جماعيا، وسيكون للمريد العارف قطبا يهديه ويرشده، لأنه من الصعب أن يتعلم المريد في غياب الشيخ والقطب أو يسافر بعيدا في حضرته الصوفية وتعراجه،مصطلح تعراجه الصوفي مأخوذ من مصطلح المعراج، ولكن كّتب التعراج، تأدبا في معراج النبي صلى الله عليه وسلم .الذوقي دون مرافق يساعده على تحمل مشقة السفر أو الحج.[33]

ومن هنا، ظهرت طرق ومذاهب صوفية كثيرة تنسب إلى شيخ بعينه أو قطب بارز له أتباع كثيرون يتبعون مسلكه في المعرفة اللدنية، وبعد ذلك، ينتقل مشعل الوراثة الصوفية أو سبحة الولاية من شيخ إلى آخر بعد الإجازة والتوصية.

وقد انتشرت في العالم الإسلامي كثير من الطرق الصوفية قديما وحديثا واقترنت بالزوايا والروابط والمساجد، فهناك الطريقة الأحمدية التي تنسب إلى أحمد البدوي وانتشرت في مصر إبان الظاهر بيبرس، وهناك طريقة صوفية أخرى تنسب إلى أبي العباس أحمد بن عمر المرسي من مرسية بالأندلس، وهي بدورها انتشرت بمصر.

كما توجد عدة طرق صوفية مشهورة كالطريقة التيجانية والطريقة الشاذلية والطريقة العلوية والطريقة القادرية والطريقة البودشيشية والطريقة الدلائية والطريقة الجيلانية والطريقة العيسوية والطريقة الناصرية والطريقة الحراقية

مناهج التصوف

إذا كان الفقهاء يعتمدون على ظاهر النص وعلماء الكلام يستندون إلى الجدل الافتراضي والفلاسفة يعتمدون على العقل والمنطق أو البرهان الاستدلالي، فإن المتصوفة يعتمدون على الذوق والحدس والوجدان والقلب. أي إن لغتهم لغة باطنية تنفي الوساطة وترفض الحسية وتتجاوز نطاق الحس والعقل إلى ما هو غيبي وجداني وذوقي، ومن ثم، فاللغة قاصرة في ترجمة التجربة الصوفية، لذلك يلتجئ المتصوفة إلى مصطلحات رمزية لها سياقات خاصة، وهذه المصطلحات كثيرة يصعب حصرها استقيت من مجالات عدة، ومن هنا يمكن الحديث عن اللفظ المشترك داخل الحقل الصوفي. ومن هذه العلوم التي نهلت منها الكتابة أو الممارسة الصوفية نذكر: علوم الشريعة، وعلوم العقيدة، والآداب، وعلوم اللغة، والفلسفة، وعلوم الآلة فضلا عن القرآن والسنة وعلم الحروف والكيمياء.

ومن مشاكل الاصطلاح الصوفي التعدد في الألفاظ والتعدد في المعاني والاختلاف بين الصوفية في معنى مفهوم ما، وهذا راجع لاختلاف التجربة الصوفية من تجربة إلى أخرى(عزام، 2000، 210).

وعليه، فهناك مجموعة من القضايا والإشكاليات التي يجب الوقوف إليها وهي: قضية العرفان وثنائية الظاهر والباطن وإشكالية التأويل، لأنها هي التي ستميز الخطاب الصوفي عن الخطاب الفلسفي والخطاب الفقهي والخطاب الكلامي. فهذا أبو نصر السراج الطوسي، وهو من أوائل المؤلفين في تاريخ التصوف في الإسلام، يعتبر المتصوفة من علماء الباطن وبالتالي، فالتصوف هو علم الباطن، بينما الفقه هو علم الظاهر.

وفي هذا يقول في كتابه "اللمع": "إن العلم ظاهر وباطن. وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة. والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح وهي العبادات والأحكام... وأما الأعمال الباطنة فكأنما القلوب وهي المقامات والأحوال، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد... فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي الجارحة الباطنة وهي القلب، وأما إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هو الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء، وقد قال تعالى:"وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة"(لقمان، 31: 20).

فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغني الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله عز وجل" ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"(النساء، 4 :83)، فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك ...فالعلم ظاهر وباطن والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول ظاهر وباطن والإسلام ظاهر وباطن(الطوسي ، 1960، 43).

ومن هنا، فإن المتصوفة يتجاوزون الحس والظاهر إلى استكناه القلب واستنطاق مقاماته وأحواله لتأسيس تجربة روحانية وتأصيل حضرة ربانية قوامها العشق والمحبة والزهادة وتأويلها عرفانيا ولدنيا، بينما يكتفي الفقهاء وعموم الناس بظاهر النصوص وسياقاتها السطحية مخافة من التأويل وإثارة الفتنة في المجتمع.

وخلاصة القول تختلف وتتعدد الطرق الصوفية حول شيوخها، ولكنها تتفق حول أصولها، فأهل التصوف في الطرق المختلفة مثل من يدسون منهجا واحدا على يد معلمين متعددين، ومن ضمن أهم مواطن الاتفاق بين الطرق الصوفية، أنهم يستنكرون العنف ويدينون الإرهاب، حيث تحفل أدبيات الصوفيَّة باستنكار العنف ورفضه أيّاً كان مصدره، وحتَّى قراءتهم للنصوص المتضمنة لكلام على القتال أو الضرب أو العذاب، تُدفع عبر التأويل في اتجاه نبذ العنف وتوجيهه وجهة التربية والتعديل والإصلاح والرياضة، أو تفصل بين منطق العلم ومنطق السر أو بين الفقه والعرفان أو الظاهر والباطن.

ولكنَّ أخبارهم ومقالاتهم تشرعه في وضعيات ومقامات مختلفة، سواء كان ذلك في علاقة بالذات الفرديَّة أو بسياقات جماعيَّة، فالصوفي في سلوكه يبيح لنفسه ممارسة أشكال مختلفة من العنف في صلة بنفسه وجسده مثلاً، ويتبنَّى مقولة "الجهاد" فيشارك في مواجهات مسلحة قد تكون مع عدو أو سلطان، بل يختار الرباط وينأى عن دنيا الناس ليحمي الثغور ويحفظ نفسه باختبارها المستمر وإخضاعها لأشكال من التربية لا تخلو من شدَّة وقسوة، يرى الصوفي أنَّه فيها تجاوز عتبة الرياضة والمجاهدة وترقى في المقامات والأحوال فبلغ مرتبة، لم يعد للعنف فيها معنى أو دور في صلته بذاته بعد أن تملكه الحب وأضحى عقيدته وموجهه، وهنا قد نظفر بحضور مختلف للعنف يلج من بوابة المتخيّل، ففي بعض أدعية الصوفيَّة الموجهة نحو عدو ما نعثر على صور كثيرة تبين عن تمثل الصوفي لمصير هذا العدو وأشكال التفوُّق عليه ودحره أو سحقه والتخلص من شرّه. فيكون العنف المتخيّل هنا حاملاً لمعنى العدالة الربانيَّة التي انتصر فيها الله للخاصَّة من خلقه ممَّن اصطفاهم وقرَّبهم إليه.

إنَّ العنف، وإن غيّب في مقالات الصوفيَّة واستهجن، فإنَّه لم يمنع من محاولة فهمه والبحث في دوافعه وسبل التصدّي له وتوجيهه. ومرجعيَّات العنف في الخيال الصوفي "يهتم بتأويل الصوفيَّة للنصّ القرآني والحديث النَّبوي وبعض الأقوال المأثورة عن الصحابة أو التابعين أو شيوخ التصوُّف، تحديداً ما ورد فيها كلام عن القتال والضرب والعقاب البدني أو الاضطهاد، فضلاً عن تناول مفاهيم الرغبة والتخلية والتحلية والعداوة، والبحث في الأطراف المستهدفة بالعنف وأشكاله لتبين الخلفيَّة المعرفيَّة المحركة لفهم الصوفيَّة للعنف سواء في نظرتهم للطبيعة عامَّة أو الطبيعة البشريَّة على وجه التخصيص، أو كذلك رؤيتهم لصلة الفرد بالجماعة"(أبو الخير، 2005، بدون رقم صفحة).هذا هو التصوف في أبسط معانيه، ليس فيه عنف أو قتل أو حرق، أو غير ذلك مما يفعله المتطرفون من سلفيي هذا الزمان.

دور التصوف في نشر الإسلام

خلال أقل من ثمانين عاما من وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، تمكن المسلمون من فتح شمال أفريقيا، وشرق ووسط آسيا، وكان الصحابة وأبناءهم يتسابقون في المشاركة في الفتوحات الإسلامية، واستقر الإسلام في الدول والشعوب التي اعتنقت الإسلام، ما عدا الأندلس، فيما لا مجال للكتابة عنه في هذا البحث.

ولكن وعبر القرون التالية انتشر الإسلام في إفريقيا في شمال الصحراء الكبرى وجنوبها وفي السودان الأعظم وفي غرب إفريقيا، وفي إندونيسيا وماليزيا والفلبين والصين وغيرها من البلاد من خلال الطرق الصوفية والتجّار المسلمين.ومما ينبغي أن يسجل للصوفية من فضل هو إنهم كانوا ممن حملوا راية الإسلام ودعوا إليه بصدق وإخلاص ودافعوا عنه بكل وسيلة فأينما حلوا كانوا يشيدون الزوايا لنشر الدين والعلم ورعاية الفضيلة والسجايا الكريم.

ومن الحق والإنصاف أن يذكر بفضلهم بالدفاع عن الإسلام ونشر علومه وآدابه وأخلاقه وإظهاره للناس في صفائه على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله

تعالى عليهم في الزهد والعدل ونشر الفضائل. وقد أورد الكاتب محمد كرد علي (http://www.alukah.net/culture/0/82008/) "الإسلام والحضارة العربية" قول بعض رجال الطرق الصوفية في افريقية"

"إن الطرق الصوفية أداة التهذيب الديني، التي يُعاد بواسطتها إلى حظيرة الدين كل من انسلخوا منه أو كادوا"، وهو قول صادق، خاصة من مسلمين أخذوا على أنفسهم عهودا أن يكونوا مُثلا عليا للإسلام، ثم نشره بين الناس، بالحسنى والقدوة الحسنة.

دور الصوفية في نشر الإسلام في إفريقيا

في محاضرات العالم الإسلامي شكيب أرسلان، قال إن الأستاذ صبري مجابذي ذكر في ندوة الإسلام، ما كتب الشيخ البكري نقلا على المبشرين فقال: "ما ذهبنا إلى أقاصي البلاد البعيدة عن الحضارة والمدينة في إفريقيا وأقاصي أسيا إلا وجدنا الصوفي سبقنا إليها وانتصر علينا"

ويقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه "المساجد" من سلسلة عالم الفكر "بعد أن دخل الإسلام المغرب انتشر انتشارا واسعا فأقبلت عليه جماهير الناس لا يعرف لها مثيل فيما فتح المسلمون من أراضي، وقد ظهر الإيمان العميق في صدور أهله والسعي الحثيث لدراسة الإسلام والعلم به، كما ظهر في هيئة جماعات من العبّاد والزهّاد من المتصوفة الذين قاموا بنشر الطرق الصوفية في المغرب كله، حتى إننا لا نبالغ إذ قلنا: لم يكن في المغرب أحد في العصور الوسطى غير منتسب إلى طريقة، مثل الشاذلية والتيجانية والسنوسية"، وكانوا لهم الأثر الواضح على مقومات المجتمع المغربي وبفضلها أصبح الإسلام محور الحياة المغربية كلها وأصبحت أخلاقه أساس المعاملات ثم اتسع نطاق هذه الطرق، فامتد إلى خارج المغرب خلال الصحراء ووصلت إلى افريقية المدارية والاستوائية فكان لها الأثر في انتشار الإسلام فيها"(حسين مؤنس، 1981 ، 85).

ويقول "الكسندر بينيغيس شنتال كيلك جابي" في كتابه "المسلمون المنسيون": "حلت بالعالم الإسلامي كارثة كبيرة في مطلع القرن الثالث عشر، بسبب غزو المغول الذين غزوا أسيا الوسطى، ثم

اتخذ الغزو اتجاها صليبيا معاديا للإسلام مع الحروب الصليبية، غير أن نشاط الجماعات الصوفية أنقذ الإسلام وأضفى عليه طابعا أكثر شعبية وعمق جذوره أكثر بين الطبقات الفلاحية.وانتشار الإسلام في افريقية جنوبي الصحراء: السينغال ومالي والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا وتشاد، إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية خصوصا التيجانية والسنوسية والشاذلية. (عبد الغني أبوبكر، 2011)

كانت الزوايا التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤر لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غرب القارة الإفريقية وقلبها، ومرد هذا خصوصا إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد بين العامة والفقراء، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى والصلاح إلى جانب ما تقوم به هذه الطرق من خدمات اجتماعية وألوان من البر والإحسان والمساواة والمؤاخاة.

ارتبط نشاط الدعوة إلى الإسلام لاسيما في غرب إفريقيا وشرقها بانتشار الطرق الصوفية، وخاصة بين المشتغلين بالتجارة، وكانت هذه الطرق قد بزغ نجمها في الأفق منذ أن تعرض العالم الإسلامي لخطر الاستعمار الأوروبي الحديث، بدءًا من القرن السادس عشر الميلادي، واستطاعت الطرق الصوفية أن تُسهم إسهامًا كبيرًا في الدعوة إلى مقاومة الاستعمار، وكذلك في الدعوة إلى الوحدة الدينية، وفى نشر الإسلام بين من لم يعتنقه، ونتيجة لذلك جذبت هذه الطرق إليها كثيرًا من الشباب الأفارقة(بازينة، 2010، 76).

ففي شرق إفريقيا وبلاد «سودان وادي النيل» ظهرت «الطريقة الميرغنية» في القرن التاسع عشر للميلاد والتي كان لها تأثيرها الكبير على الناس هناك، وكانت قد ظهرت قبلها بعدة قرون "الطريقة القادرية والشاذلية والرفاعية"، وانتشر أتباع هذه الطرق على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، وفى الجزر المواجهة له وكذلك في المناطق الداخلية(بازينة، 2010، 78).

وفى سنة (1253هـ = 1837م) ظهرت في شمال إفريقيا الطريقة السنوسية على يد الفقيه الجزائري "محمد بن على السنوسي"، الذي استطاع أن يقيم دولة دينية في الأراضي الليبية، دون أن يريق قطرة دم واحدة، وتمكنت هذه الطريقة من خلال أتباعها وزواياها التي انتشرت في إفريقيا جنوب

الصحراء أن تنشر الإسلام بين العديد من القبائل الإفريقية الوثنية، مثل قبيلة «بيلى» التي كانت تسكن منطقة «إنيدى» شرق «بوركو» في شمال «نيجيريا»، وعمّقت الإسلام بين جماعات «التِّدَا» فى شمال بحيرة تشاد.

وكان للسنوسيين فضل كبير في نشر الإسلام في «واداى»، التي تقع شرق «بحيرة تشاد»، وبين قبائل «الجلا» في «الحبشة»؛ حيث كانوا يشترون العبيد أو الأطفال ثم يحررونهم ويرسلونهم إلى مركز الطريقة الرئيسي في «واحة جغبوب» في الصحراء الكبرى بين «مصر» و«ليبيا»، فيتعلمون ثم يعودون إلى بلادهم دعاة للإسلام.

كذلك كان لأتباع «الطريقة القادرية» التي انتشرت في شمال إفريقيا وغربها أثر كبير في نشر الإسلام في هذه البلاد، فقد اتخذ أتباعها من مدينة «ولاتة» بموريتانيا أول مركز لهم في تلك البلاد منذ القرن الخامس عشر الميلادي، ثم لجئوا إلى «تمبكتو»، وانتشر أتباعهم ودعاتهم في أنحاء «السودان الغربي»، وكذلك في منطقة «القرن الإفريقي» وساحل «شرق إفريقيا»، ووصل أتباعها في الداخل حتى «الكونغو»، وكان أتباع هذه الطريقة يقومون بتأسيس المدارس لتعليم الدين ونشر الإسلام، ويرسلون نوابغ الطلاب إلى مدارس «القيروان» و«تونس» و «فاس» و«الأزهر»، وغيرها، فإذا ما أتموا دراستهم عادوا إلى أوطانهم دعاة للإسلام.

ومن الطرق الأخرى التي انتشرت في القارة «الطريقة التيجانية» التي أنشأها «أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن سالم التيجانى» المتوفى عام (1231هـ = 1815م)، وقد قام أتباعه بنشر هذه الطريقة بين رجال القوافل والتجار، فانتشرت تعاليمها في حوض «السنغال» وفى «تمبكتو» وفى سائر أنحاء غرب إفريقيا، وظهرت هذه الطريقة أيضًا في «السودان النيلى» وشرق إفريقيا على يد بعض التيجانية القادمين من غرب إفريقيا. وقد انخرط في سلك هذه الطريقة علية القوم في «الحبشة»، مثل سلطان «جمة» «أبى جفار»، و«الرأس على» نائب الإمبراطور الحبشي، وعمل هذان الرجلان على نشر الإسلام بين الوثنيين من الأحباش، ونجحا في ذلك نجاحًا عظيمًا فتحول معظم سكان الولايات الوسطى والشمالية في «الحبشة» إلى الإسلام(النقيرة، 1974، 113).

ذلك أن الإسلام لم يُفرض كما رأينا على الشعوب الوثنية الإفريقية فرضًا، إنما حمله قوم من أهل إفريقيا نفسها، اتخذوا صفة التجار أو المعلمين أو الدعاة أو الصوفية، فليس غريبًا أن يلقى قبولا منهم، فهو في نظرهم دين إفريقي غير دخيل، والدعوة إليه تتم بالطرق السلمية وليس بالغزو المسلح كما فعل الاستعمار الأوربي في العصر الحديث(النقيرة، 1974، 114).

كما أن الإسلام لم يستعبد هذه الشعوب، إنما أشعرها بالعزة والكرامة، فخلق منها دولا كبرى وقوى فيها النزعة إلى الحرية والاستقلال، ولم يقضِ على نظمها المحلية بل تواءم معها وخلق منها ومن تقاليده تقاليد إسلامية الطابع إفريقية الروح.

ومن ثم تقَبَّله الأفارقة، خاصة أن الإسلام لم يكن دينًا أخرويا فحسب، وإنما كان دينًا وحضارة تقوم على أساس تعمير الدنيا والفوز بالآخرة، ومن ثم لزم أن يَنشر الإسلام نور العلم والثقافة بين أتباعه ومعتنقيه، فارتبط الإسلام بالعلم والتعليم منذ البداية، وكان الإفريقي لا يكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ويرتفع قدره اجتماعيا كلما زادت ثقافته، ولذلك سمعنا عن عدد كبير من العلماء الأفارقة الذين ظهروا في مختلف ميادين العلم والثقافة، ولم يكونوا في ذلك أقل من إخوانهم علماء المغاربة أو المشارقة، زد على ذلك أن الإسلام لم يعترف بالتفرقة العنصرية، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو العرق أو اللون، ولا يميز بين إنسان وآخر على أساس اللون أو الثروة، لأن معيار التفاضل في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، ولذلك أقبل الأفارقة على اعتناقه، فوحَّد بينهم وقضى على عناصر الفرقة والتشرذم، كما وحد بينهم لغويا؛ إذ انتشرت اللغة العربية بين كثير من شعوب القارة، وصارت هي أداة الفكر والعلم والمخاطبة، أما الشعوب التي احتفظت بلغاتها، فقد كانت العربية هي وسيلة العلم والتعامل كما كانت اللغة الرسمية، لأن اللغات الإفريقية لم تكن لغات مكتوبة.

وكما وحَّد الإسلام بينهم دينيا، وحّد بينهم سياسيا، وقضى على التشرذم القبلي والنزاعات القبلية، وأنشأ دولا كبرى، بل إمبراطوريات عظمى مثل «إمبراطورية مالي»، التي ضمت معظم منطقة غرب إفريقيا بالكامل، وكانت مساحتها تفوق مساحة دول غرب أوربا مجتمعة، ليس هذا فحسب،

بل إن الإسلام جعل الإفريقي يشعر بانتمائه ليس إلى بلاده فقط، بل إلى عالم إسلامي واسع، يستطيع أن ينتقل بين أرجائه سواء كان تاجرًا أو حاجا أو طالب علم، وفى كل مكان يجد هذا الإفريقي القوت والمأوى والمساعدة والاستقبال الودود، على أساس من أخوة الإسلام التي جمعت بين أفراد هذا العالم الإسلامي الواسع، الذي يمتد من الصين شرقًا حتى المحيط الأطلسي غربًا.

ومن هنا اعتبر الأفارقة الإسلام دينًا إفريقيا قام بنشره بينهم قوم منهم، اتخذوا الدعوة أو التجارة أو التصوف وسيلة إلى ذلك، وطبقوا مبادئ الإسلام السمحة وأخلاقه الحميدة وقيمه السامية من إخاء ومساواة وتكافل وتعاون، ومن ثم انتشر الإسلام في هذه البقاع الواسعة في القارة، حتى إنه يمكن القول بأن قارة إفريقيا هي القارة المسلمة الوحيدة في عالم اليوم، على اعتبار أن غالبية سكانها يعتنقون الإسلام. ويتبين ذلك بوضوح من خلال حديثنا عن السلطنات والممالك الإسلامية التي قامت بالقارة في جنوب الصحراء في العصور الوسطى(النقيرة، 1974، 80).

دور التصوف في نشر الإسلام في آسيا

قصة انتشار الإسلام في جنوب وشرق آسيا تُعَدُّ من أعظم قصص انتشار الإسلام في العالم؛ فالمسلمون لم يذهبوا إلى هذه المناطق الشاسعة المساحة العظيمة السكان بجيوش فاتحة، ولم يخوضوا مع أهلها حروبًا تُذكر، وإنما ذهبوا إليها كتُّجار يحملون أخلاقَ الإسلام، وهَمَّ الدعوة إلى الله، وذلك بالحسنى والمعاملة الحسنة، فحقَّقوا القاعدة الأصيلة التي تؤكد أن الإسلام إنما يغزو القلوب لا الأراضي أو البُلدان.

يقول"الكسندر بينيغيس شنتال كيلك جابي": "ظهرت الجماعة الصوفية من طرق النقشبندية في شمال القوقاز، فكان أن سجل الموجة الثانية من انتشار الإسلام في الإمبراطورية الروسية، وفي نهاية القرن 15 م ظهر في داغستان وبلاد الشيشان أوائل دعاة النقشبندية من شيروان واسيا الوسطى، وظهرت في شمال القوقاز جماعة صوفية أخرى من الطرق القادرية واليها يرجع الفضل في نشر الإسلام بين الأنكوش نحو عام 1880م(النقيرة، 1974، 117).وقال أيضا في كتابه "تاريخ التصوف

الإسلامي": "ونأخذ مثالا على ما حدث في الهند فكما قال مانسينيون بحق إن الإسلام لم ينشر في الهند بواسطة الحروب، بل انتشر بفضل الصوفية والطرق الكبرى وهي الجشتية والكبروية والشطارية والنقشبندية، ذلك لأن التوفيق الاجتماعي بين الظافرين والمقهورين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطالبون ويقرضون ولا يأملون في شئ"(النقيرة، 1974، 121).وقد كان للتصوف الإسلامي في الهند الفضل في المصالحة بين الطوائف كما يتجلى ذلك في تصوف "ابا كيور" المتوقي سنة 979 هـ الموافق لسنة 1571 م(هدى درويش، 2004، 214).

لقد قام الصوفية بجهود عظيمة في نشر الإسلام منذ القرون الأولى من عمل الإسلام إلى تاريخنا الحديث، وفي الحفاظ عن الهوية الإسلامية للأمة، وواجهوا الاستعمار وقاوموه فلقد انتشر الإسلام في ‘‘المليبا‘‘ و"المويلا‘‘ و"المالديف" من بلاد الهند، بجهود الصوفي الورع "مالك بن دينار"، وجهود أخيه وآخرين من أسرته ومريديه كما انتشر في كجورات من الهند أيضا كذلك في بلاد الفليبيين وفي ‘‘ترنشيولي‘‘ بجهود الصوفي "ثرشاة" المتوفى سنة 431 هـ وقام بنفس الجهد الصوفي يوسف الدين السندي في القرن السابع الهجري في السند وملتان وكشمير.

وقد حمل التجار المسلمون بضائعهم، ورحلوا من المشرق الإسلامي إلى تلك البلاد النائية عن طريق البحر، وكان لعرب جنوب الجزيرة العربية اليمنيِّين والعُمَانيِّين النصيب الأوفى في ذلك، فأخذوا يبيعون ويبتاعون، ووجد أهل تلك البلاد النائية فيهم الصدق، وعرَفوا فيهم العفَّة والأمانة، ثم علموا أن هذا كله من أثر العقيدة التي يحملونها؛ فحُبِّب الإسلام إلى نفوسهم؛ الأمر الذي لم يظلوا عليه طويلاً حتى باتوا يَدِينُون بالإسلام، وأصبحوا من أبنائه المخلصين.

وأسلم "أونج" حاكم بروناي على يد السلطان محمد شاه، واتَّسع نفوذها فشملت جزر صولو والفلبين، ثم فرضت إنجلترا الحماية عليها، ودخلتها اليابان ثم انسحبت منها، واتفق سلطانها مع البريطانيين على الانسحاب على أن تبقى إدارتهم المدنية، ولم تنضم بروناي إلى الاتحاد الماليزي، الذي انتشر فيه الإسلام عن طريق أسلام ملك (مالاقا) فصارت مالاقا دولة إسلامية، فاحتلتها البرتغال ثم هولندا، وتابعوا سياستهم في قتل المسلمين، ثم احتلتها بريطانيا، وقامت ثورات في الملايو،

منها ثورة الشيخ الهادي، تلميذ الشيخ محمد عبده، ثم احتلتها اليابان؛ ووقع التخريب حتى هزيمة اليابان، فقام اتحاد الملايو، وحُوِّلَتْ مسئوليات الاتحاد إلى المجلس الشعبي، وفي مؤتمر لندن تقرر استقلال اتحاد الملايو(درويش، 2004، 220).

ودخل الإسلام الصين في أسرة "تانج"، التي عاصرت البعثة النبوية، وانتشر الإسلام فيها عن طريق الفتوحات، وظهر القائد "السيد الأجل" فأصبح حاكمًا، فازدهر الإسلام، ثم سيطرت الأسرة "المانشورية" فاضطهدت المسلمين، واحتفظ الكثير منهم بدينهم خفية.

أما تركستان فدخلها الإسلام عن طريق الإيجور "ستاتوك بوجرخان"، الذي اعتنق الإسلام قبل أن يتولَّى العرش، واحتلَّها الصينيون، واتَّبعوا سياسة اضطهاد المسلمين، فقامت الثورات.

وظهرت إمارة "رجا سليمان" المسلمة في الفلبين، وبدأ ماجلان بنشر المسيحية، فتصدى له حاكم جزيرة ماكتنان، ثم احتلتها إسبانيا، باستثناء منطقة "مورو"، وأجرت اتِّفاقًا مع الولايات المتحدة لتتركها لها، فاستمرَّت الثورات، ثم احتَلَّتها اليابان، وحصلت على الاستقلال، وأصبح الحُكم فيها رئاسيًّا، وطالب النصارى بتطبيق القانون المدني على المسلمين؛ فيُمْكِن لهم أن يتزوَّجوا المسلمات، وبدأت حرب الإبادة.

أما بورما فلم تكن شواطئها محطَّات للسفن؛ فوصل إليها مسلمو الصين والهند، فنشروا الإسلام، واحتلتها إنجلترا، فتجمَّع غالبية المسلمون في أراكان، حتى أصبحت دولة مسلمة مستقلة، ثم احتلتها إنجلترا فاستقلت عنها، وتم ضمها إلى بورما، فبدأ التطهير العرقي ضدَّ المسلمين، وأصدرت السلطات قرارًا بحظر تأسيس مساجد جديدة(مصطفى رمضان، 2006، 1).

أما تشامبيا ومنطقة الهند الصينية، التي تشمل: فيتنام، وكمبوديا، ولاوس، فمعظم شعوبها كانت تَدِين بمعتقدات كالبراهمية، فوصل إليها الإسلام في ساحل مملكة أنام مناسبًا لانتشار الإسلام، ويُطْلَقُ في تشامبيا اسم "هوي هوي" على المسلمين، فدخلت في صراع مع الصين وكمبوديا، وغزتها فيتنام(محمود أحمد قمر، 2015، 153).

كان الفيتناميون يَشُنُّون حرب إبادة ضدَّ المسلمين، فترك معظمهم البلاد إلى كمبوديا، ويُطْلَقُ عليهم "خمير إسلام"، أي الكمبوديون المسلمون، وعانت هذه المناطق من الشيوعية، فوقع المسلمون فريسة للجهل الكبير بدينهم، وغَدَت المساجد لا تُفْتَح إلا يومَ الجمعة، ويقوم الأئمة بالعبادات نيابة عن الشعب، وعمَّ الفقر حتى إنهم لا يجدون ما يُكَفِّنُون به موتاهم، ولا ما يسترهم، ويرفض المسلمون إلحاق أبنائهم بالمدارس الحكومية خوفًا على عقيدتهم(محمود أحمد قمر، 2015، 157).تلك قصة الفتوحات الربّانية لأهل الطرق الصوفية، تتوحد مع الإسلام، وتتألق مع الإيمان، ولم يحدث أن قتل صوفي رجلا مسلما أو غير مسلم، أو حتى أفتى بقتله.

ويكفي القول إن الفلبين، كان المسلمون العرب يسمّوها بلاد "واق الواق"، نظر لبعدها، ومع ذلك سافر إليه المسلمون، ونشروا فيها الإسلام، ويحمل مسلمون الفلبين اسم "مورو"، وهو اسم اسباني للدلالة على المسلم أو العربي.

دور التصوف في التصدي للفكر التكفيري

لا يمكن الحديث عن دور الصوفية في التصدي للفكر التكفيري، دون التطرق للخطر الذي يمثله الفكر السلفي، وهو الفكر الذي يمثل الإطار الأيديولوجي لفكر التكفير، وهو ما نكتب عنه.من أين جاء هؤلاء التكفيريون، المعروفين باسم السلفية، والسلف منهم براء، بفقه الكراهية، وكيف مارسوا القتل وهم يزعمون أنهم يدافعون عن نقاء التوحيد، لم يفهم أحد منهم قول الله في كتابه الكريم"وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سبأ، 34: 24)، وقوله تعالى "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة" (المائدة، 5: 48، النحل، 16: 93).

ولقد حاور الله مخلوقا ملعونا هو إبليس، فقال إبليس " فبعزتك لأغوينهم أجمعين" (ص، 38: 82). ويرد عليه الخالق جل شأنه: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان..." (الحجر، 15: 42).فالحوار هو الأصل وأن التمايز بين البشر ضرورة للتعارف بين الثقافات، فالأديان تلتقي على التراحم والمحبة، ولكن السلفيين يلتقون على الخصومة، والغريب أنهم يقولون خصومة في الله، فظاهرة

العنف عندهم مرده الفهم القاصر للنصوص الدينية عن الجهاد التي تشرع للعنف وترفعه إلى مرتبة الواجب، ويتجاهل هؤلاء كل آيات التسامح، ويختارون من النصوص ما يؤيد فكرة معدة مسبقا ولا يذهبون في التأمل، وعندما تنامت فتنة التكفير التي اجتاحت العالم الإسلامي، حاصدة أرواح آلاف الأبرياء من المسلمين وغيرهم، في تجاوز صريح لكل القيم الإنسانية وانتهاك فاضح لكل الحرمات وتشويه غير مسبوق للإسلام.

إن سيوف السلفيين لم تقتل في تاريخها القديم والحديث إلا رقاب المسلمين في الحجاز وعمان واليمن والعراق والشام ومصر والجزائر، ولهذا السبب، فالسلفية حركة مريبة في أهدافها ومشاريعها، فكيف بحركة دينية تكفر عموم المسلمين وغير المسلمين، ولا ترى إلا نفسها الوحيدة المسلمة.

إن الإيمان لدى السلفية المعاصرة بأنهم يحوزون الحقيقة المطلقة، وهو الطاقة الحيوية التي تتزود بها فكرة التكفير وتستمد منها الشرعية، وبسببها نعيش تدهورا حادا في رؤية الفكر الإسلامي الصحيح، ونشأ جيل إسلامي جديد مقطوع الصلة بالتراث الإسلامي الإصلاحي، وتشكل لدى السلفيين جموح متزايد للدفاع عن ممارستين شاذتين: ممارسة السياسة في الدين بإخضاع الإسلام إلى مطالب السياسة والمصلحة والصراع، وممارسة الدين في السياسة عن طريق بقاء موقع قوي فيها باسم المقدس.

ولا مقام للسلفية بدون تميّز عن الآخر، ولا يوجد تميّز للوهابية السلفية إلا تكفير الآخر، فمن هذا التكفير تستمد مشروعيتها، وتميّزها وزخم عدوانها، المهم أن فكر الحركة السلفية اعتمد على أرضية التكفير والقتل التي مهدت السبيل إلى توسيع فقه إدانة المخالف وتحقيره وتهميشه وتكفيره وقتله، مما جرّ على الأمة ويلات من التمزق والتناحر والاختلاف، وطيلة عدة عقود تقريباً، والسلفية تحاول أن تكيّف نفسها مع محيطها الإسلامي، الذي لم تعترف بإسلامه، وهو أيضا، أي المحيط المسلم، وكرد فعل، شكك في أبعادها الإسلامية، يقول الوهابيون السلفيون،نعلم جيدا أن مصطلح الوهابية يغضب إخواننا في بعض البلاد الإسلامية، ولكن الحقيقة الواضحة هي أن التراث الوهابي

مستمد من تراث فكر أحمد بن تيميه، وأخذ منه أمراء التكفير وجماعات الإسلام المتطرفة، يلاحظ هنا أن بحثنا علمي أكاديمي، والحق لا يُعلى عليه. مثلامن قال: لا اله إلا الله لا يخلو أن يكون واحدا من اثنين، إما أن يقولها دون أن يشرك بالله شيئا، أي لا يزور قبرا ولا يبنيه ولا يصلي عنده ولا يطوف حوله، وأما أن يقولها ويفعل شيئا من ذلك، والأول لا يسأل عن شي ولا يحاسب على شي وان أتى بملي الأرض ذنوبا، وجاء في فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد "إن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن محبة الله، ورجاءه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، والثاني هو الذي يزور القبور فهو مشرك كافر، لا يقبل منه عمل ولا صلاة ولا صوم."(آل شيخ، 2011)،وهو كتاب تم طبعه مئات المرات، ووُزّع على حجاج بيت الله الحرام، ويُعتبر هو المنهج والدستور كل حركات السلفيين والإسلام السياسي.

ومن أجل التوحيد الخالص في زعمهم، قاموا بهدم الآثار في مكة المكرمة والمدينة المنورة، لم يتركوا أي أثر يدل على الوجود التاريخي للنبي أو لأهل بيته أو صحابته دون أن يردعهم دين أو ضمير أو ثقافة، فقد هدموا في مكة البيت الذي وُلد فيه النبي وهدموا مهبط الوحي وهو بيت السيدة خديجة والذي كان يسكنه معها، كما ودمروا دار الأرقم بن أبي الأرقم، وطمسوا شعب أبي طالب الذي يثبت قصة الحصار الذي أقامته قريش للنبي، كما هدموا أضرحة السيدة عائشة وقبر عبد الله والد النبي ومسجد شق الصدر في بادية بني سعد، وقبر أم النبي آمنة بنت وهب في الأبواء، وهو القبر الذي زاره النبي بعد الهجرة وبكى عنده وأبكى صحابته، وهدموا البقيع وقطعوا النخل الذي ظل مثمرا والذي غرسه النبي بيده الشريفة لسلمان الفارسي ليفدي نفسه به، ظل مثمرا حتى طالته يد القطع عام 1926، وردموا الخندق الذي حُفر في حرب الأحزاب، وأزالوا معظم جبل الرماة الذي شهد موقعة أحد، وأزالوا أضرحة حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وباقي شهداء أحد، وهدموا العريش الذي ظل مقاما في مكانه قرب آبار بدر، وأزالوا سقيفة بني ساعدة التي شهدت خلافة أبي بكر الصدّيق، وغيرها من المشاهد الإسلامية التي تنتمي لفترة النبوة.

أما الحجرة النبوية فقد كانت تحوي على أسياف النبي ودروعه وحرابه وأسرّته، كلها أخذت ودمرت في سابقة، وتلك الآثار ظلت باقية حتى عام 1926 والتي كانت شاهد عيان حي على الوجود التاريخي للإسلام.وقد ظلت تلك الآثار لم يفكر أحد من المسلمين في إزالتها حتى جاء الغزو السلفي ليدمر الآثار ويطمس الهوية.

وبسبب كل ذلك، قامت داعش الحركة الإرهابية، بتطبيق الفتاوى السلفية، فهدموا قبر النبي يونس في نينوى بالعراق، وهدموا قبر الصحابي حجر بن عُدي في الشام، بالإضافة إلى حرق الكنائس والمساجد التي لا تتبع ملتهم، كما سبوا النساء وباعوهن في أسواق النخاسة المعاصرة.

وهكذا وجدنا المسلمون أنفسهم في صراعات داخلية، ولا ننسى أنه نقلوا الحرب إلى الغرب الأوربي والأمريكي، فهلع الغرب، واعتبروا كل مسلم مشروعا للإرهابي، كما نجد أن السلفية تحرم السلام على المسيحي، وترفض تهنئتهم بأعيادهم، وتكفر من يزور حتى قبر النبي محمد عليه السلام، فانتشر ما يمكن تسميته بفقه الكراهية الذي يجلب الفرقة والتشرذم، وهو ما لا نجده عند التصوف.

خطورة السلفية

السلفية هي خطر على الأمة الإسلامية من جهتين: الأولى أنها فكر هدام، ينشر الفتن، ويذيع الأحاديث غير المتفق عليها، واعتبروا أن كل آيات التسامح منسوخة بآية السيف، وأن المسلم مطالب بأن يكره غيره ويقتلهم ويضيّق عليهم في طرقهم، والفكر السلفي يحرّم الموسيقى وتحية العلم ويحرم قراءة القرآن بصوت عذب، ويحرّمون السينما والتلفاز، يحرمون السلام الوطني، ويعتبرون الأوطان ترابا نجسا، وهكذا خطورتهم تنبع من الفتن التي ينشروها بين المسلمين قبل غير المسلمين. والثانية يزعمون أنهم ينتسبون للسلف الصالح والسلف منهم براء، إذ السلف الصالح لم يكن ينشئ البدع ولم يكفر مخالفه مهما عارضه في فكر أو عقيدة، ونضرب مثالا رائعا في ذلك من العلماء الأتقياء، كتلك العلاقة المتينة التي كانت تربط بين الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه والإمام الحسن البصري رغم اختلافهما في بعض المسائل(الذهبي، 2001، 162:2).

فهذا التعايش كان سمة أولئك الصالحين، أما السلفية فهي فئة نشأت بعيدا عن السلف الصالح، لأنها ترفض الآخر وتتهمه بالكفر وتعتدي عليه، واستعملت المال سلاحا.

مميزات الصوفية بالمقارنة مع السلفيين

أول ما يميز الصوفية عن السلفية، إنسانية الأولى وقسوة الثانية، فالأولى لشدة احترامها للإنسان تضعه في مقام القرب من الله بدون وسائط السماسرة وتجار الإيمان، عبر الاتصال المباشر أو "الحلول" و"الاتحاد" أو "المواجد" و"الأحوال" وغير ذلك من المفاهيم العرفانية الروحية.

أما السلفية فتصلان بالإنسان درجة من الاحتقار، تجعل منه آلة مبرمجة لتطبيق وصفة يومية من التعاليم الفقهية، بحيث تلجم عقله وتطمس جذوه روحه وتحوله إلى كائن أبله لا يعرف من الألوان إلا الأسود والأبيض، بينما تزخر الطبيعة بالألوان الزاهية البهية والجميلة.

وثاني ما يميز الصوفية عن السلفيين، هو انشغال الصوفية بمتعهم الروحية الشخصية، التي لا يسعون من ورائها لا إلى سلطة ولا منصب ولا ترأس أو غلبة، واحتراق السلفيين وعجلتهم من أجل بلوغ مناصب السلطة والغلبة لإحكام قبضتهم على الدولة وممارسة الوصاية على عقول الناس وإحكام الطوق على رقابهم.

وثالث ما يميزهما عن بعضهما سعة أفق الصوفية وضيق السلفية، فللصوفية تأويلاتهم للنصوص الدينية تأخذهم إلى مشارف الروح، وتستكنه مواطن الحلم والجمال في الإنسان، وفي الكون وما وراء الموجودات، بينما يُحول السلفيون والإخوان نصوص الدين إلى عبارات نمطية ماحقة وفقه مغلق، يفقر الحياة ويقتل ومضة الإبداع، وهم يفعلون هذا كله باسم السماء، دون أن يكون الربّ قد اتخذهم وكلاء أو محامين.

ورابع ما يفصلهما عن بعضهما البعض جمالية الصوفية روحا وجسدا ولغة وتصورا وتخيلا، وقبح السلفية مظهرا ومخبرا وخيالا وكلاما، فالأوائل لا يتكلمون إلا ليحدثوك عن فنائهم في عشق المطلق، وعن متعتهم الروحية التي يجدونها في الجدية والذكر، دون أن يعتبروك أقل آدمية وأهمية منهم،

ودون أن يلزموك بما هم فيه من تجربة، بينما لا ينطق الأواخر إلا ليصرخوا بأصوات منكرة، فمنهم المتملق والمتحذلق، ومنهم الفظ الغليظ القلب الذي لا يبشر إلا لينفر، وهم لا يرون في غيرهم إلا خطرا داهما وشرا مستطيرا، فتراهم يكيدون للكل حتى تنقلب مكائدهم عليهم، ولهذا يلازمهم الخراب حيثما حلوا وارتحلوا.

إن الفرق بين الصوفية من جهة والسلفية من جهة أخرى، هو مثل الفرق بين المحبّة والكراهية، بين المودّة والجفاء، بين العشق والنقمة، بين الحِلم والانتقام، بين الحضارة والبداوة، وأننا لو نزعنا قلوب السلفيين، ووضعنا بدلها قلوب الصوفية لقلّت البلوى وخمدت الفتن، وعاش الناس في أمن وأمان.

إن تاريخ الحركات الصوفية في إطار الحضارة الإسلامية تاريخ حافل بالومضات المضيئة نقف فيها أمام محطات مهمة، لعل أبرزها إسهامًا "جلال الدين الرومي"، والصوفية ليست بدعة ولكنها استغراق في التدين الصحيح والمضي في رحلة العشق الإلهي إلى حيث يمكن الوصول إلى مرحلة الطرح الصوفي الكبير، الذي يضع صاحبه في مكانة رفيعة يختلط فيها التعبد بالزهد وتمتزج فيها بساطة الدين وروعته بطقوس روحية، لا تتعارض مع الأصول الثابتة للعقيدة ولا الشريعة، كما أنها تخرج من عباءة الجدل الفقهي لتصل إلى حالة من التوحد مع الذات الصافية، والمضي في ذكر الله بطرق مختلفة، فيها إيقاع حي يربط المخلوق بالخالق، بينما التطرف هو نمط بائس ويائس من الهجرة الزمانية إلى كتابات بعض فقهاء القرن الثالث الهجري في محاولة لتطويع النصوص في خدمة أهداف لا تمت لصحيح الدين من قريب أو من بعيد، وهى تأتى نتيجة جرعات من الشعور بالعزلة وتكفير الآخر ورفض حياة العصر.

إن التطرف داء لعين إذا أصاب شخصًا هوى به إلى الحضيض، وإذا أصاب جماعة أخرجها من زمرة المسلمين، إن التطرف امتداد طبيعي للتعصب والغلو والتشدد في غير موضعه، ولأن المتطرف يسعى إلى تغيير طبيعة المجتمع ونظام الدولة وإيجاد نمط يريده هو ويتعايش معه دون غيره، لذلك ظهر

الإسلام السياسي لكي يكون ابنًا شرعيًا للتطرف والمغالاة ومحاولة توظيف الدين لخدمة أغراض دنيوية ومصالح سياسية(الفقهي،2017 العدد 47433).

ونخوض في أعماق المقارنة بين التصوف والتطرف(الفقهي،2017 العدد 47433):

أولًا : لعل أبرز ما يميز تاريخ الصوفية عن غيرها من الجماعات الإسلامية هي أنها لا تسعى نحو ركوب موجة الإسلام السياسي، فهي تتوازى أحيانًا مع الرهبنة المسيحية برغم الاختلافات الكبيرة بينهما، ولكن نزعة الزهد والانصراف عن طيبات الحياة تجعل للصوفية شأنًا خاصًا في التاريخ الإسلامي كله، وهى جماعات كثيرة العدد، قوية التأثير، ولكنها لا تميل إلى استعراض عضلاتها، لأنها وجدان روحي وليست قوة سياسية، لذلك كان أقطاب الصوفية دائمًا محل احترام عن بعد، لا يحملون عداوة، ولا يبشرون بأيديولوجية معينة، ولا يتدخلون في حياة الناس، فالفارق بين الصوفية والسلفية كبير وواضح، فالصوفية علاقة بين الإنسان وخالقه، أما السلفية فهي اشتباك مع المجتمع بالقبول أو الرفض .

ثانيًا: إن الصوفية تمثل جيشًا سلميًا لخدمة الإسلام وليست جماعة مغلقة بالمنطق الماسوني للكلمة، إنها روح متجددة وحب للآخر واحترام لخيارات الغير، لذلك عاشت عبر القرون دون صدام يذكر مع السلطات الحاكمة، رغم أن بعضها كان ظالمًا يجور أحيانًا على رجال الزهد وأصحاب النظرة الشفافة تجاه الحياة والناس.

ولقد اتسم الطابع الصوفي دائمًا بقبول التعايش المشترك مع أصحاب الديانات الأخرى، فضلًا عن نزعة متأصلة تدعو إلى احترام خيارات الغير، وإذا كانت الصوفية قد ارتبطت بالأعلام الخضراء والإيقاع الموسيقى الراقي، فإنها قد عرفت أيضًا التعددية والتشعب بين طرق صوفية مختلفة ومدارس متعددة في ذكر الله، قد تختلف في الأسلوب ولكنها تتوحد أمام الغاية وهيالاندماج في ذاته والانصياع لجلاله وعزته .

ثالثًا: لا بد أن يتذكر علماء الفلسفة الإسلامية أن الحركات الصوفية كانت مكونًا رصينًا في تاريخ الفلسفة عمومًا باعتبارها أم العلوم، وفى الفلسفة الإسلامية خصوصًا، لما تميزت به من تأثير عميق في

اتجاهاتها المختلفة ومدارسها المتعددة، فالصوفية فلسفة قبل أن تكون عقيدة أو مذهبًا، إنها سلوك إنساني يصل بالفرد إلى حالة من السمو الأخلاقي والارتفاع عن المباذل والرذائل والخصومات .

رابعًا: إن الأزهر الشريف كان ولا يزال قلعة إسلامية صافية احتضنت مدارس التصوف وتفاعلت معها وسعت إلى نقائها، وما زال الأزهر يذخر بشيوخ التصوف، وما زال قادرا على مجابهة السلفية بكل صورها التكفيرية.

خامسًا: إن الصوفية سلاح إسلامي معتدل نرفعه في وجه محاولات الغلو والتطرف المشوبة بالعناد الذي يستند إلى الجهل ويعتمد على الخرافة ولا يدرك الدلالة الحقيقية لصحيح الدين.

ومن هنا فإن تشجيع بعض الطرق الصوفية والفلسفات الوسطية يمكن أن يؤدى إلى انتزاع فتيل الإرهاب وإنهاء فيروس العنف تحت مظلة الإسلام الصحيح الخالي من الشوائب والمتجه نحو الوسطية والاعتدال والذي يتواصل مع أهل الكتاب ويحترم الذين يختلفون معه في الرأي، فالداعية الصوفي الصالح يمكن أن يكون نموذجًا حيًا للإسلام النقي والصافي.

خاتمة

كما رأينا الخطر التكفيري، عبر التعرّف على أيديولوجيته ونمط تفكيره، وكما نرى جماعات العنف السلفي، الذي ينسب نفسه للإسلام، فلابد من تكاتف المسلمين للخروج من الشر التكفيري المستطير، من خلال تبني النهج الصوفي، وذلك من أجل تبني الفكر الصوفي رسميا وشعبيا، والتصدي للثقافة التكفيرية، لمنع الشباب المسلم من الانضمام للجماعات التكفيرية، ومن ثمّ انحسار تلك الجماعات تدريجيا، وبعدها تهدأ الأمور، وتستقر الأحوال، ولو بعد فترة متوقعة.

فلا يمكن القضاء على فكر في يوم وليلة، بل تحتاج ربما لجيل كامل ليتحقق المراد في نشر ثقافة التسامح وقبول الغير، ونعلم جيدا أن الأمر خطير، وليس بتلك البساطة، وهو طريق طويل، ولكن في النهاية هو الطريق الآمن الوحيد، لنهضة الأمة..

وقد تواصلت بالفعل الهيئات الإسلامية للوقوف ضد الفتاوى التكفيرية، من كل المذاهب الإسلامية، ما عدا شيوخ السلفية، واتفقوا على ضرورة مواجهة فكر التكفير. ولقد دعا على سبيل المثال "مرصد الفتاوى الشاذة والتكفيرية"، التابع لدار الإفتاء المصرية إلى نشر التصوف الصحيح وتفعيل دوره فئ مواجهة التطرف والإرهاب، مشيراً إلى أن الصوفية الصحيحة مثلت في فترات تاريخية واسعة خاصة في أوقات الأزمات وحفظ استقلال واستقرار الأوطان وبث الطمأنينة والسلام في المجتمعات.

أن التصوف الصحيح لديه إمكانات كبيرة في المعركة ضد الإرهاب والتطرف دفاعًا عن صحيح الدين وصورته الحقيقية، وعن الدولة ككيان جامع لأمال مواطنيها وحامية لأمنهم ومستقبلهم، وكذلك عن المجتمع وسلمه الأهلي وتعايشه السلمي، وأن الصوفية تعد ساحة كبيرة وممتدة لجذب الشباب الطامح لبذل الجهد والطاقة في سبيل خدمة دينه ووطنه، بعد أن أدرك خواء التنظيمات الإرهابية والمتطرفة، التي لا همَّ لها سواء الاستيلاء على السلطة والحكم في العديد من البلاد العربية والإسلامية.

يمكن البدء بتلك الفتوى وغيرها مما صُدر في جامع القرويين بالمغرب وجامع الزيتونة بتونس، ويمكن تعميمها ومناقشتها بين علماء الأمة من كافة المذاهب وكافة المدارس الفكرية والفقهية، حتى الوصول لرسالة عمل موحدة للوقوف ضد التكفير، ولا نجد أفضل من أهل التصوف، كما ذكرنا لتسامحهم وثقافتهم غير الإجبارية لغيرهم، وهو ما كتبنا عنه في هذا البحث.

إن المجتمع وخاصة الشباب المسلم في أشد الاحتياج للعديد من قيم التصوف في مواجهته للتطرف والإرهاب والتي يأتي في مقدمتها المحبة لله ورسوله وللمجتمع والإنسانية ككل، باعتبار أن الإنسان بنيان الرب عز وجل، وأن هذه القيم تمثل زاداً حقيقياً في مواجهة قوى الإرهاب والتطرف التي انحرفت عن دين الله وسنة نبيه الكريم وأساءت إلى الإسلام ونفرت منه.

المصادر والمراجع

ال شيخ، عبد الرحمن بن حسن. 2011. *فتح المجيد شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد*. مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر

ابن خلدون. 2009. *مقدمة*. بيروت – لبنان: دار الفكر.

ابن ماجه، محمد بن يزيد. 1986. *كتاب السنن*. القاهرة: دار الريان للنشر.

ابن هشام. 1998. *السيرة النبوية*. بيروت: دار الفكر.

أبو الخير، علي. 2005. *النغم في الفكر الصوفي*. بيروت: بحث منشور في مجلة المحجة.

أبو بكر، عبد الغني. 2011. *الطريقة البوبكرية*. القاهرة: دار الكتب المصرية.

الاصفهاني. 1988. *حلية الاولياء*. بيروت لبنان: دار الكتب العلمية.

أمين، أحمد. 1969. *ظهر الإسلام*. بيروت لبنان: دار الكتاب العربي.

الاندلسي، ابن عبد ربه. 1997. *العقد الفريد*. بيروت: دار العلم للملايين.

بازينة، عبد الله سالم. 2010. *انتشار الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء*. ليبيا: جامعة 7 أكتوبر – مصراته.

بدوي، عبد الرحمن. 2008. *تاريخ التصوف الإسلامي*. حلب سوريا: الشعاع للنشر والتوزيع

الجابري، محمد عابد. 2015. *بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الحمداني، ريا قحطان. 2011. *الاسلاموفوبيا*. القاهرة: دار العربي للنشر والتوزيع.

درويش، هدى. 2004. *دور التصوف في انتشار الإسلام في اسيا الوسطى والقوقاز*. القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

الذهبي، محمد بن عثمان. 2001. *سير اعلام النبلاء*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

رمضان، مصطفى. 2006. *الإسلام والمسلمون في جنوب شرق اسيا*. بدون دار نشر.

الشعراني، عبد الوهاب. ب.ت. القاهرة: دار البابي الحلبي

شوشه، فاروق. 2002. *أحلى 18 قصيدة في الحب الإلهي*. القاهرة: مكتبة الاسرة.

الطوسي، أبو نصر السراج. 1960. *اللمع*. تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد القادر. القاهرة: دار الكتب الحديثة.

عزام، محمد مصطفى. 2000. *المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل*. المغرب: مطبعة نداكوم للصحافة والطباعة بالرباط.

الغزالي، أبو حامد. 1983. *المنقذ من الضلال*. تحقيق: جميل إبراهيم حبيب. بغداد: دار القادسية للطباعة.

فراحتية، فيروز. 2017. *التصوف عند المسلمين:الحلاج انموذجا*. منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – قسم الفلسفة الجزائر

قمر، محمود أحمد. 2015. *الإسلام والمسلمون في شرق وجنوب شرق اسيا*. القاهرة: دار عين

الكلاباذي، محمد بن إسحاق. 1933. *التعرف على مذهب اهل التصوف*. القاهرة: الأميرية.

للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

مصطفى الفقي. 2017. *التصوف في مواجهة التطرف*. مقال منشور في جريدة الاهرام القاهرية 18-10. العدد 47433.

معلوف، لويس. 2000. *المنجد في اللغة والاعلام*. بيروت لبنان: دار الشروق.

مؤنس، حسين. 1981.*المساجد*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب.

النقيرة، محمد عبد الله. 1974. *انتشار الإسلام في شرق افريقيا ومناهضة الغرب له*. القاهرة: كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.